هدم الفلسفة وتعقب الفلاسفة

الفلسفة هى أصل العلوم، ونهاية العلوم - التى لا تنتهى عادة - فلا نكاد نعثر على علم لم يخرج من إطار الفلسفة، حيث كان الفلاسفة فى الأصل أرباب علوم بحثوا فيها عن طريق الفلسفة، ولهذا قاموا بوضع المنطق الذى اعتبروه الآلة المعتمدة، والمتفق عليها فى تناول التفكير الفلسفى للوصول إلى الحقيقة، وحل كثير من المسائل التى طرأت على العقل الإنسانى، فكان الطبيب، والفلكى، والرياضى فى الأصل فيلسوف(حكيم)، ومن هنا جاء لقب حكيم الذى أطلق على الطبيب المعالج حتى بداية العصر الحديث، وتلك كانت بداية العلوم، أما نهايتها ففى منح الأكاديميات، والجامعات الحديثة لدرجة الدكتوراه كدرجة علمية عليا تحت مسمى «دكتوراه الفلسفة» فى علم كذا، بمعنى أن هذا الحائز على الدرجة قد تخصص، وتعمق فى هذا العلم، أو التخصص حتى تفلسف فيه..

يصنف الغزالى العلوم الفلسفية فى كتابه «مقاصد الفلاسفة»، ويدلى برأيه فيها كفقيه:

1 - المنطقيات: فأكثرها على منهج الصواب، والخطأ نادر فيها، وإنما يخالفون أهل الحق فيها بالاصطلاحات، والإيرادات دون المعانى، والمقاصد، إذ غرضها تهذيب طرق الاستدلالات، وذلك مما يشترك فيه النظار..

2 - الرياضيات: نظر فى الحساب، والهندسة، وليس من مقتضيات الحساب، والهندسة ما يخالف العقل، ولا هى مما يمكن أن يقابل بإنكار وجحد، وإذا كان كذلك فلا غرض لنا فى الاشتغال بإيراده..

3 - الطبيعيات: الحق فيها مشوب بالباطل، والصواب فيها مشتبه بالخطأ..

obeikandl.com

4 - الإلهيات: أكثر عقائدهم فيها على خلاف الحق، والصواب نادر فيها..

يقول د. الأهوانى فى كتابه «الفلسفة الإسلامية»:

- «وكما أقام بعض فلاسفتهم(العرب المسلمين) فلسفتهم على الرياضيات كالكندى، والفارابى، أقام بعضهم الآخر فلسفته على الطب كابن سينا، وابن رشد، ذلك أن الفلسفة كانت فى ذلك الزمان تحوى جميع العلوم، فلم يكن من الغريب أن يحيط فلاسفة العرب المسلمين بسائر العلوم المتداولة فى عصرهم، وبعد فإن الفلسفة ليست شيئا آخر سوى منهج فى التفكير يسلكه المرء لبلوغ الحقيقة، ويكتسب المرء هذا المنهج من ممارسة العلوم، فإذا اشتغل بالرياضيات سلك سبيل البراهين الرياضية، وإذا عُنى بالعلوم الطبيعية كان طريقه المشاهدات، والتجارب، وملاحظة الوقائع، واستخلاص القوانين التى تحكمها»..

ويعبر أحد الفيزيائيين الإيرانيين عن أهمية الفلسفة بقوله:

-«إن الدولة التى لا تملك فلاسفة كبارا لا يمكن أن يكون بها علماء كبار، إذ إن الفيلسوف على حد تعبير هايدجر Heidegger رجل قادر على دوام التأمل»..

وتقول د.يمنى الخولى فى كتابها «الطبيعيات فى علم الكلام»:

-«الطبيعيات، أو الفلسفة الطبيعية هى السلف التاريخى المباشر - وفى الآن نفسه الجذور الضاربة فى البنية الثقافية - للعلم الطبيعى الذى يتربع على صدر نسق العلم الحديث»..

فقد خلفت النظم الفكرية الفلسفية تأثيرا مستقلا، كان له أثر عظيم جدا فى تطور العلم الحديث..

هل هى فلسفة إسلامية أم عربية؟..

من مطالعة الآراء الكثيرة فى هذا الموضوع للباحثين قديما، وحديثا، وللإسلاميين، وغيرهم، وللعرب وغيرهم نستطيع رفع عنوان «الفلسفة الإسلامية» كتسمية علمية دقيقة تصف هذا النوع من الفكر الذى لم ينسب إلى العرب قبل الإسلام، وبالتالى فليس من الحق أن ينسب إليهم، ولكن الإسلام، والمنتسبين إليه - حتى لو كانوا غير مسلمين - أحرى بهذا الاسم، وهو الدين الذى حمله العرب فوق جيادهم إلى مختلف الأجناس؛ التى كانت موجودة بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم، واتخذت هذا الفكر - رغم لغته العربية - منهاجا فى بحث الكثير من المشاكل التى طرأت

للإنسان طوال حياته على الأرض، وبعد دخوله فى الإسلام..

الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام الإسلامى:

تعنى الفلسفة عموما بالبحث فى الكون، والإنسان، ومن هنا عنيت الفلسفة الإسلامية بالبحث أيضا فى الكون، والإنسان، ولكن على ضوء تعاليم الإسلام، أما علم الكلام - الذى نشأ فى الإسلام - فهو تعضيد العقائد الإسلامية بالحجج العقلية، وقد خلط بعض الباحثين بين الفلسفة الإسلامية، وعلم الكلام الإسلامى فاعتقد أنهما شىء واحد، فيقول أحدهم، وهو الباحث الهندى تاراشاد عن الفلسفة الإسلامية:

-«نشأت فى حاجة الإسلام، والجدل الدينى، واهتمت فى أساسها إما بتوطيد دعائم العقيدة، أو التماس أساس فلسفى لها، أو تنمية الأفكار الدينية الكلامية»..

يشبه علم الكلام فى الإسلام علم اللاهوت فى أوروبا المسيحية من حيث الأساس الدينى لكل منهما - مع بعض الفروق – وهو يختلف كلية عن الفلسفة كمنهج يعتمد على البرهان العقلى، بينما اعتمد علم الكلام على الجدل، كما اختلفا فى موضوعات البحث، فعلم الكلام اختص بالله، وصفاته، وصلته بهذا العالم، والإنسان طبقا للتعاليم الإسلامية، فهو علم مقيد بالعقائد الدينية فى التفكير، أما الفلسفة ففى النظر إلى مبادئ الوجود، وعلله مثلا قد تنتهى إلى إثبات وجود علة أولى للكون، وهو الله، أو المحرك الأول الذى لا يتحرك – كما ذهب أرسطو – وقد تنكر وجود الله باعتبار أن المادة أزلية، وهى أصل ذاتها..

حتى المتقدمين من المفكرين المسلمين قد حددتهم كتب التراجم الإسلامية فى إطار الفلاسفة، أو المتفلسفة كالكندى، والفارابى، وابن سينا، وابن طفيل، وابن رشد، وحددت المتكلمة، أو علماء الكلام فى إطار علمهم مثل النظّام، وأبى الهذيل العلاف، والأشعرى، والجبائى، وغيرهم، وسردوا منازعات الفلاسفة، والمتكلمين بعد ظهور الفلسفة فى الإسلام أواخر القرن الثانى الهجرى، وأوائل الثالث، فصنف الفلاسفة الرسائل فى تجريح آراء المتكلمين، واتهامهم بالضعف، والتهافت طوال القرون الهجرية الثالث، والرابع، والخامس وحتى القرن السادس الذى اختلط فيه علم الكلام بالفلسفة الإسلامية حتى احتواها تماما، وتغير الاسم إلى «التوحيد» بدلا من الكلام، ولم تتميز الفلسفة الإسلامية مرة أخرى إلا فى العصر الحديث على يد أعلام من أمثال مصطفى عبد الرازق،

ويقرر ابن خلدون أن الغزالى كان السبب فى اختلاط الفلسفة بعلم الكلام لدى المتكلمين المتأخرين، منذ أن نشر علوم المنطق فى الملة..

كانت الأفلاطونية المحدثة هى آخر مذاهب الفلسفة اليونانية عند اتصال العرب المسلمين بالفكر اليونانى، وهى التى تعود بأصولها إلى فيثاغوراس (580 – 500 ق.م.) إمام الحكمة الصوفية، وتلميذ طاليس Thales..

وكانت الأفلاطونية المحدثة هى التطور الطبيعي للفلسفة اليونانية حيث جمعت مذاهب أفلاطون، وأرسطو، والرواقيين تحت راية فيثاغوراس، وبرزت صيغتها النهائية فى تعاليم أفلوطين، وتلاميذه، وأشهرهم فورفوريوس..

وكان أفلوطين من أهل ليكوبوليس، أو سيوط(أسيوط الآن)، ولد حوالى 500م فألم بمدرسة الإسكندرية، ولكنه لم يرض عن التعاليم التى تلقاها هناك، فراح يتتلمذ على أمونيوس ساكاس، ولم يسجل فلسفته كتابة إلا سنة 554م عندما كتب تاسوعاته Enneads، ثم تتابعت كتبه حتى وفاته سنة 569م..

ظهرت أفكار الأفلاطونية المحدثة فى تعاليم فيلون اليهودى السكندرى، كما ظهرت لدى الأغنوسطيين من أصل مصرى، وعند كليمنت، وأوريجين من مسيحيى الإسكندرية، أما التوفيق الدينى لتعاليمها فظهر لدى بلوتارخس Plutarchus، ومكسيموس Maximus من أهل صور على ساحل البحر الأبيض المتوسط..

أما فورفوريوس تلميذ أفلوطين فقد ولد بسوريا سنة 233م، وتوفى سنة 301م، واسمه الحقيقى مالخوس بمعنى ملك، أو ملكى، وظل كتابه الشهير ايساغوجى، أو المدخل إلى مقولات أرسطو من أوضح المتون فى المنطق الأرسطى طيلة قرون عدة، وقد وضع له أمونيوس Ammonius تفسيرا، وشرحا أخذ به النسطوريون(أرباب أحد المذاهب المسيحية)، وهو أشهر المتأخرين من الأفلاطونيين المحدثين..

ثم جاء بروقلس Proclus (410 – 485م) وهو من أهل القسطنطينية، فتلقى علومه بالإسكندرية، ثم أكملها فى أثينا على يد بلوتارخوس، وسيريانوس، وهو يأتى فى المرتبة التالية لأفلوطين فى الأفلاطونية المحدثة..

عاش أقليدس الرياضى قبيل 300 ق.م. وهو من علماء الإسكندرية الأوائل، فجعل للدراسات الرياضية مكانا مرموقا فى المتحف الملحق بمكتبة الإسكندرية، وجمع فى كتابه «العناصر» ملخصا

للمعلومات الهندسية التى حصلها اليونانيون منذ فيثاغوراس حتى عصره، وبوبها، ونسقها فى تسلسل منطقى..

قسم السكندريون العلوم الرياضية، أو «علوم التعاليم» - كما درجوا على تسميتها بهذا الاسم - إلى أربعة أقسام هى «الحساب»، و«الهندسة»، و«الفلك»، و«الموسيقى»، وهى التى اشتهرت فى العصور الوسطى بالمجموعة الرباعية Quadrivium إلى جانب المجموعة الثلاثية Trivium من «نحو»، و«بلاغة»، و«منطق» وسماها الفارابى بعد ذلك بعلم اللسان..

وانقسم المنطق إلى «المقولات»، و«العبارة»، و«القياس»، و«البرهان»، و«الجدل»، و«السفسطة»، وأضاف العرب إليه ثلاثة كتب؛ أحدهم مقدمة، أو «مدخل»(ايساغوجى) فرفريوس الصورى - تلميذ أفلوطين - وهو عبارة عن الكليات الخمس؛ الجنس، والنوع، والفصل، والخاصة، والعرض العام، وألحقوا الكتابين الآخرين فى ذيل المنطق، وهما «الخطابة»، و«الشعر»، ولم يوليهما العرب أهمية كبيرة لتعلقهما بطبيعة حياة اليونانيين السياسية الديمقراطية، واحتياجهم إلى هاتين الصناعتين للتغلب على خصومهم، وتأييد آرائهم السياسية، والاجتماعية فى بلادهم..

وهذا المنطق الاستنتاجى أساسه التسليم بالمقدمات، والوصول منها إلى نتائجها عن طريق القياس وهو منطق الدين، ومن هنا جاء تسلط رجال الدين على التفكير البشرى، فمنطق رجال الدين منطق قياسى أساسه التسليم بمقدمات ثابتة، لا يحيدون عنها، ولا يسمحون لغيرهم بالخروج عليها..

أما المنطق الاستقرائى فهو الذى يسلك سبيل الحس، والمشاهدة، ويُعنى بالحقيقة الخارجية، أو الموضوعية وهو منطق العلم..

وقد خلا المنطق تماما - كما نوه الغزالى - من التأثيرات العقائدية، والميتافيزيقية، وهو المنطق الصورى الذى تطور بعد ذلك إلى المنطق الرياضى، ثم المنطق الرمزى..

قال ابن تيمية فيما نقله السيوطى فى كتابه «صون المنطق» عن دخول المنطق إلى كتب الأصول:

-«لم يكن أحد من نظار المسلمين يلتفتون إلى طريق المنطقيين، بل الأشعرية، والمعتزلة، والكرامية، والشيعة، وسائر الطوائف كانوا يعيبونها، ويثبتون فسادها، وأول من خلط المنطق بأصول المسلمين أبو حامد الغزالى، وتكلم فيه علماء المسلمين بما يطول ذكره»..

وهو ما تأثر به الدكتور النشار فى كتابه المذكور عن الغزالى:

-«المازج الحقيقى للمنطق الأرسطى بعلوم المسلمين، لا لما وضع من كتب منطقية سهلة العبارة،

بل لتلك المقدمة المنطقية التى وضعها فى أول كتابه «المستصفى»، والتى ذكر فيها أن من لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه قطعا، وعلى هذا الأساس اعتبر منطق أرسطو شرطا من شروط الاجتهاد، وفرض كفاية على المسلمين، ووجهت إلى الغزالى بسبب هذا اعتراضات شديدة من الفقهاء المسلمين»..

يقول زكى الميلاد فى مقاله «أصول الفقه والمنهج»:

-«إن ما طرحه الدكتور النشار على أهميته، وقيمته الذى أشار إليه فى كتابه(مناهج البحث عند مفكرى الإسلام) إلا أنه يتسم ببعض التشدد غير الحميد، وقد ينزع نحو القطيعة، والانغلاق، ويقطع على الفكر الإسلامى إمكانية التواصل، والانفتاح مع الفكر الإنسانى، والتجربة الإنسانية»..

وقد وجب التعقيب على كلام ابن تيمية فى أن أصول الفقه، وضعها الشافعى اعتمادا على المنطق اليونانى حيث كان الشافعى يجيد اليونانية، وقد عاش الشافعى قبل الغزالى بأكثر من قرنين..

تضمن علم أصول الفقه المنهج الذى اعتبره الدارسون الإسلاميون قديما، وحديثا ثمرة العقل الإسلامى الخالص، وأن المسلمين هم أول من ابتكروا هذا العلم الذى لا يوجد له نظير لدى اليونان فى الغرب، ولدى حضارات الشرق القديم من مصرية، وهندية، وصينية، وفارسية، وقد كان الدكتور سامى النشار رائدا عصريا فى هذا المجال عند إعداده لرسالة الماجستير، التى حولها إلى كتاب باسم مناهج البحث فى أربعينيات القرن العشرين؛ برهن فيه على أن هذا المنهج إسلامى صميم لم يأت عن طريق المنطق اليونانى بصفته قانون العقل المتوافر للمسلمين بعد ترجمته، والمنهج العلمى الثابت باعتبار تعاريفه، وحدوده ثابتة، وأحكامه، وقضاياه مسلمة، وأقيسته منتجة لليقين، وموصلة للعلم، وأن المنهج يختلف كلية عن المنطق اليونانى فى روحه العامة، وقواعده الاستدلالية، وأصوله الفكرية، ونظرته إلى الكون، والعالم..

ويبدو أنه قد تأثر بكلام الرازى فى كتابه «مناقب الشافعى» حيث قال:

-«أعلم أن نسبة الشافعى إلى علم الأصول كنسبة أرسطوطاليس إلى علم المنطق».. ثم يقول:

-«الناس كانوا قبل الشافعى يتكلمون فى مسائل أصول الفقه، ويستدلون، ويعترضون، لكن ما كان لهم قانون كلى مرجوع إليه فى معرفة دلائل الشريعة، وفى كيفية معارضتها، وترجيحاتها، فاستنبط الشافعى أصول الفقه، ووضع للخلق قانونا كليا يرجع إليه فى معرفة مراتب أدلة الشرع»..

والسؤال الحائر هو:

-«هل كان للمسلمين أن يصلوا إلى علم الأصول دون التعرف، والتواصل مع المنطق اليونانى؟.. وإذا كان هذا العلم مُرضيا لهم، وفخرا أنجزوه، فعلى أى أساس تم تقييمه، والحكم عليه؟!»..

ومعروف عن الشافعى اطلاعه الواسع فى علوم الأوائل من اليونان، والأواخر من المسلمين، وإتقانه لما كان يطالعه من كتب..

كما كان ابن حزم أول من دعا، وألح فى تجديد مصطلحات أصول الفقه، وتحديد مدلولات الألفاظ بصورة دقيقة لتحديد الأصول الفقهية فى إطار صارم، ولا يتأتى ذلك إلا باعتماد الحدود المنطقية..

ثم جاء بعده أبو المعالى الجوينى، وهو ما اتبعه فى كتابه «البرهان»، وهو تلميذ القاضى أبو بكر الباقلانى، ثم الغزالى الذى قام باشتقاق أسماء معروفة لدى النظار المسلمين بدلا من الاصطلاحات اليونانية..

الانقلاب:

يتباهى عبد الوهاب الشعرانى المتصوف بكراهته لتعلم علم الحرف »علم الرمل«، والهندسة، والسيمياء وغير ذلك من علوم الفلاسفة فجعل الفلسفة فى مستوى السحر..

نشرت إحدى المجلات المدعومة من الفكر الوهابى بالسعودية تصدر فى لندن مقالا عن ابن الهيثم، وآخرين:

-«إنه كان امتدادا طبيعيا، ومنطقيا للفكر اليونانى، فلا عجب أنه كان معتبرا من الزنادقة، وكاد أن ينسى تماما من العالم الإسلامى»..

حظيت هذه العلوم بعناية الخلفاء العباسيين فى القرن الثانى للهجرة بالحث عليها، ورعايتها بينما ظل الفقهاء، ورجال الدين ينظرون إليها بعين الشك والارتياب حتى استسهلوا اتهام رجل مثل علىّ بن عبيدة الريحانى وهو من خاصة الخليفة المأمون، أو ابن زيد البلخى بالزندقة لاتجاههما اتجاها فلسفيا فى كتبيهما..

وكل من استخدم العقل دون النقل المحفوظ اتهم فى دينه، وكأن الدين لا عقل له، فيقول ابن خلكان فى تقييم «كمال الدين يونس الموصلى» الذى كان عالما بالدين، واشتمل علمه دين الهنود، والنصارى حتى إن أصحاب هذه الأديان كانوا يستفتونه دون علمائهم، كما كان مطلعا على علوم الأولين:

-«كان متهما فى دينه لكون العلوم العقلية غالبة عليه، وكانت تعتريه فى بعض الأحيان غفلة

obeikandl.com

لاستيلاء الفكرة عليه بسبب هذه العلوم»..

كان هذا هو تقييم الفقهاء، ورجال الدين لأهل العقل فى الإسلام حتى لا نراهم إلا قد حكموا على أنفسهم بانعدام العقل الذى ميز الله به الإنسان، وكرمه به عن سائر المخلوقات سواء العلوية كملائكته الكرام، أو الأرضية من حيوان، وهوام، وقد عاش يونس الموصلى هذا فيما بين القرنين السادس، والسابع الهجريين اللذَين انحسرا فيهما الفكر الإسلامى، وقد كان الموصلى هذا على صلة بابن خلكان صاحب التراجم المعروف..

كان للموصلى تلاميذ يقصدونه فى موطنه الأصلى بالموصل لتلقى علوم الدين والدنيا، وكان منهم ابن الصلاح الشهرزورى(ت 643هـ) الذى أصبح فيما بعد إماما من أكبر أئمة الحديث الشريف، وقد تلقى عن أستاذه هذا ـ سرا(؟!) - دروسا فى علم المنطق كأصل للفلسفة كما هو معروف، إلا أن أستاذه الموصلى لاحظ فيه انسدادا عقليا فى فهم المنطق، مع ملكة طيبة فى الحفظ، والنقل للعلوم الدينية فنصحه بترك الاشتغال والاهتمام بالمنطق، فأطاعه الشهرزورى وهو يشعر أن أستاذه قد وضع عنه حملا كان عقله لا يستوعبه؛ فانقلب على المنطق، ومعلميه، ومتعلميه باسم غيرته على العلوم الدينية، ثم أفتى فى ذلك جريا على وصف أهل السنة لهذا العلم بأن من تفلسف تزندق:

-«إن الفلسفة أس السفه والانحلال ومادة الحيرة والضلال ومثار الزيغ والزندقة ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المطهرة المؤيد للحجج الطاهرة والبراهين الباهرة ومن تلبس بها تعليما وتعلما قارنه الخذلان والحرمان».. حتى يقول:

-«وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة، ومدخل الشر، وليس الاشتغال بتعليمه، وتعلمه مما أباحه الشارع، ولا استباحه أحد من الصحابة، والتابعين، والأئمة المجتهدين».. وهو ما قاله الشافعى قبله، وعلل به تحريم المنطق، والكلام، وكذلك مالك بن أنس..

ثم يصل إلى القصد من فتواه، وهو تحريض السلطان ضد المناطقة والمتمنطقين:

-«فالواجب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المياشيم ويخرجهم عن المدارس ويبعدهم ويعاقب على الاشتغال بفنهم»..

ومن بينهم من تلاعب باللفظ نكاية وسخرية، وقد أدخلوا أنفسهم طواعية فى هذه السخرية فقال أبو الفتح البستى:

-«فلسفة أصلها فلّ السفه».. وهو ما ذكره الثعالبى فى «يتيمة الدهر»، وكذلك الفقيه أبو عمران الميرتلى فى بيته الشعرى:

لا خير فيما «الفلّ» أوله وآخره «سفه»

أصبحت فتوى ابن الصلاح وثيقة يعتمد عليها خصوم المنطق، والمناطقة، ورآها الناس موجهة منه أيضا إلى الغزالى الذى أدخل مناهج علم المنطق فى الفقهيات، فلابن الصلاح مآخذ كثيرة على الغزالى، منها اشتغاله بالمنطق..

ولا أدل على سرعة سريان هذه الفتوى، أو العدوى بين الفقهاء، ورجال الدين من أنها قد طبقت مباشرة على أحدهم ممن جمع علم الأصول مع علم الأوائل، وهو عالم الدين الشهير «سيف الدين علىّ الآمدى» الذى كان حنبلى المذهب، ثم تحول إلى المذهب الشافعى، وشهدوا له بالبراعة فى العلوم الدينية، والفقهية(خاصة علم الأصول) حيث جاء إلى القاهرة، وتولى تدريس العلوم الشرعية إلى جانب العلوم الفلسفية، وخصوصا علم المنطق، فاتهموه بفساد العقيدة، والقول بالتعطيل، وذهابه مذاهب الفلاسفة فى التفكير، وكتبوا محضرا بذلك وقع عليه الكثيرون، وأعلنوا استباحة دمه ففر إلى الشام، ودعى للتدريس بمدارس دمشق، ولكنه عزل لنفس السبب..

كان «ابن قتيبة» من أوائل من وضعوا علوم الأوائل المترجمة فى موضع التعارض مع كتاب الله(أزمة الخلط فى العقل الإسلامى)، تلاه «عبد القاهر البغدادى» الذى أدرج الفلاسفة، والمشتغلين بعلوم الأوائل فى عداد «أهل الأهواء، والفرق الخارجة على الإسلام، وأعدهم من «الكفرة الذين لا تؤخذ منهم الجزية، ويقتلون» إن لم يرتدوا عن كفرهم..

ومنذ ذلك التاريخ اعتبر الاشتغال بالمنطق من الأشياء المحرمة على المؤمن الصحيح الإيمان – بزعمهم – وقد تمثل ذلك فى أكبر مشايخ الشافعية وهو الشيخ «تاج الدين السبكى»، وكذلك «ابن تيمية» الحنبلى الكبير الذى كان عدوا لدودا للمنطق، والفلسفة كما ورد فى معظم مؤلفاته، وقد أفرد رسالة خاصة لذلك وهى «الرد على عقائد الفلاسفة»، وكتابا بعنوان «نصيحة أهل الإيمان فى الرد على منطق اليونان» لخصه جلال الدين السيوطى، وضمنه مجموعة كتبه، وأسماه «جهد القريحة فى تجريد النصيحة»، كما ألف كتابا فى ذم المنطق وهو «صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام»..

اشتبك العقلانيون المسلمون أمثال ابن سينا، وابن الهيثم، وابن رشد فى خلافات حادة مع أتباع المدرسة الأشعرية(Asharite School)، وكان من حسن حظنا، وحظهم عدم تمكن الأصوليين من السلطة السياسية لعدة قرون، وإلا لما كان هناك عصر ذهبي لإنجازات هؤلاء الذين أثبتوا قدرة العقل الإسلامى على التفاعل مع الفكر الفلسفى الدخيل، كما يبشر أيضا بإمكانية التفاعل

الإسلامى مع الفكر الغربى هذه الأيام..

ويرى الأصوليون أيضا من أنصار مذهب الاستعادة Restoration أن العصر الذهبى للعلم الإسلامى كان بسبب التزام المسلمين الدينى، ويجهلون تماما أن هذا الازدهار العظيم حدث فى عصور حكم فيها هارون الرشيد، والمأمون، والمعتصم المعروفون بتحررهم الذى كان موضع استياء شديد من الفقهاء المعاصرين، ورجال الدين، خاصة أتباع ابن حنبل، فتجاهلوا أن هؤلاء الحكام حجموا توجهاتهم الظلامية حتى ازدهرت هذه العلوم، وبرز هؤلاء العلماء رغم مضايقات الغيورين..

صادف الخمسة الكبار فى الحضارة الإسلامية الكندى(184 - 259هـ)(801 - 873م)، والرازى(214 - 312هـ)(830 - 925م)، وابن سينا(369 - 428هـ)(980 - 1037م)، وابن رشد(520 - 595هـ) (1126 - 1198م)، وابن خلدون(732 - 808هـ)(1332 - 1405م) حماية الحكام، والولاة، والأمراء من بطش الفقهاء، ورجال الدين أعداء الحضارة، والتطور أينما كانت على مر العصور، والتى رموها بالزندقة، وبالكفر أحيانا إلى يومنا هذا، وكان الدافع لذلك هو الغيرة الشديدة من هؤلاء النوابغ عندما لاحظوا وصولهم اليسير لأصحاب السلطة دونهم، وقد كان الحكام، والولاة، والأمراء محقين فى ذلك ففضلا عن الحاجة للعلوم الطبيعية كالطب مثلا، والفلك فهى تتميز بالاستقلال عن شخصية الإنسان، واتجاهاته فى الحياة، فلم نجد فى التاريخ مذاهب طبية معينة، أو متعصبين لاتجاهات فلكية دون الأخرى لأنها علوم تحتكم إلى العقل، والمنطق، ولا يستطيع أى إنسان التحكم فى أخيه الإنسان بالمنطق، أو بالفلك، أو الطب مثلا، فهى علوم مفتوحة، ومتاحة لمن يغترف منها، وكان أطباء أشهر الخلفاء المسلمين من اليهود، والنصارى، أما الدين فقد هلهله الفقهاء، والأئمة بآرائهم، ومذاهبهم فى تفسيره، ومقدار فهمهم للنصوص الدينية، ومصالحهم العليا؛ فربما كان الفقيه، أو رجل الدين ليس على مذهب الخليفة، أو الوالى، أو الأمير مثلما حدث أيام المأمون الذى كان «معتزليا» فناصب أهل السنة العداء، وناصبوه كذلك فى القول بخلق القرآن، فجعلوها قضيتهم الأولى، واستغلوها أحسن استغلال فى الدعاية لهم، ولمذهبهم..

ولم تنفع هذه الحماية الخمسة الكبار سوى حين من الدهر، فبعد زوال الحماية وقعت رقابهم تحت مقصلة أهل السنة الذين استنفروا معهم الغوغاء؛ فنالوا ما نالوه منهم فى حياتهم، ثم تتبعوهم فى كتبهم الكثيرة جدا فأساءوا لهم، ولسمعتهم بين المسلمين بما ادعوه عليهم، فقد أفتى أحدهم - علاوة على الزندقة والتكفير - بأنهم ليس لهم ما للمسلم من حقوق على أخيه المسلم

من النميمة به، وعدم استحلال غيبته، وغيرها من الأمور التى حرموها عليهم، وبعد أن اعتدوا على كتبهم بالحرق، والتمزيق حتى اختفت تماما، ولم يبق منها إلا ما ترجم منها إلى اللغات الأخرى مثل اللاتينية لتنهض أوروبا، وتتقدم بعلمائنا، وتحتل كل العالم الإسلامى، وتستغل ثرواته حتى يومنا هذا قهرا بالعلم، والإبادة بالسلاح كالفئران المريضة، كما لم يتبق من الآراء التى طرحوها فى كتبهم إلا ما ادعوه عليهم فى كتبهم من مبالغات إمعانا فى الإساءة لسمعتهم، وتبريرا لتكفيرهم، ولو كانوا أرشد من ذلك لاحتفظوا بكتبهم من أجل أن يدينهم كل المسلمين، ولكن لأنهم كذبة ومدعين فقد تخلصوا منها، وعليه ليس لمسلم عاقل إدانتهم إلا إذا كان مصابا بالعته، أو انضم لهذا القطيع الهائم فى غيابات الجهل، والتطرف الوجدانى..

فالكندى الذى نال حماية المأمون، والمعتصم، والواثق ثم انقلب عليه الحال بالخليفة المتوكل الأصولى المنغلق، ومن كان كذلك فيسير على الفقهاء التأثير عليه، واستمالته لتطرفهم فى الانتقام من الكندى، فما كان من الخليفة إلا أن أمر بمصادرة مكتبته الخاصة التى عُرفت «بالمكتبة الكِندية» وكان يتيحها للمطلعين من العامة، ثم سحب أمام الغوغاء الذين استنفرهم رجال الدين وهو الشيخ الذى ناهز الستين ليجلد أمامهم خمسين جلدة بطريقة مهينة وسط صيحات غوغاء أهل السنة، وهى إحدى محاكم التفتيش باسم الإسلام التى أقامها رجال الدين ضد من ليس على هواهم، أو على من خالفهم فى معتقداتهم الإسرائيلية التى أدخلوها على الدين القويم مستعينين بالسلطة الجاهلة، وتعصبها الأعمى، فاعتزل الكندى فيلسوف العرب الحياة فى داره مكلوما حتى مات..

أما الرازى الذى عاش حتى عصر إمارة المنصور بن اسحق على مدينة الرى فى زمن الخليفة المكتفى فكان للتحريض الدينى أثره عندما أمر المنصور بعقوبة غريبة ربما اقترحها عليه شياطين الفقهاء، ورجال الدين المنتفعون بالإمارة؛ وهى أن يضرب بكتبه فوق رأسه حتى تنفلق الكتب، أو تتهشم رأسه التى تفكر حتى فقد الرجل بصره فى محكمة أخرى من محاكم التفتيش باسم الإسلام..

وظل ابن سينا مطاردا من رجال الجيش المتعصبين رغم توليه الوزارة للأمير حمدان؛ بمهاجمة بيته عدة مرات، وتمزيق كتبه، وبعثرة أوراقه، وتحريض الأمير عليه مرارا لقطع رأسه لولا هروبه الدائم، ولجوئه إلى أصدقائه المقربين لإتمام تأليف كتبه هروبا من القتل، والاغتيال، فقط لأنه يفكر، ويكتب ما يفكر فيه بحرية..

يقول ابن سينا عن نفسه فى محاولة شعرية ضد متهميه بالزندقة:

ليس من السهل اتهامى بالزندقة فلا إيمان بالدين أقوى من إيمانى

فإذا كنت الزنديق فى العالم كله فلامسلم واحدبعدى

ولم يكن موت ابن سينا منذ مئات السنين حائلا دون النيل منه بعد هذه الحياة المتوترة بسبب علمه، وذهنه المتقد فلم يتركه الأحداث من مدعى الدين، أصحاب التبول الذهنى اللاإرادى ممن لا ينشطون إلا فى جمع المال الحرام من أى مصدر فنشر أحدهم مقالا فى إحدى المجلات التى تصدر من لندن، وتمولها المملكة السعودية جاء فيه:

-«إن قصة مشاهير العلماء المسلمين فى القرون الوسطى كالكندى والفارابى وابن الهيثم وابن سينا توضح أنه إذا وضعت مسألة كونهم من المسلمين جانبا فلن يبقى منهم ولا فى أعمالهم شىء يمت للإسلام بصلة بل على العكس فقد كانت حياتهم - على وجه الخصوص - لاإسلامية، أما إنجازاتهم فى الطب، والكيمياء، والفيزياء، والرياضيات، والفلسفة فما هى إلا امتداد طبيعى، ومنطقى للتعاليم اليونانية»..

وأبى الهنود المسلمون إلا أن يشاركوا العرب فى التفاهة، والجهل، ووصم الإسلام بما ليس فيه، فكتب أحدهم فى إحدى المجلات الإسلامية المتخصصة يقول:

-«كان معظم الفلاسفة إما من المعتزلة، أو من الملاحدة، وكثير منهم مارس الموسيقى، والتنجيم، والسحر، وكلها إما محرمة، أو مكروهة فى الإسلام، والرازى لم يؤمن بالوحى، والفارابى اعتمد على المنطق وحده، لا الشريعة للتفرقة بين الخير، والشر، أما الكندى فلم يعترف بصفات الله، وأخيرا ابن سينا الذى لم يؤمن بالبعث، هكذا حدثت خسارة المجتمع تدريجيا للقيم الإسلامية»..

ولا نطيق أن نترك هذا المتبول فكريا إلا بالتعليق على أسلوبه الركيك أولا، وجهله التام إذ لم يكن أحد من هؤلاء الذين ذكرهم من المعتزلة أصحاب علم الكلام، بينما من ذكرهم بميزان العلم فلاسفة، وهناك فرق بين الفلسفة، وعلم الكلام فى الإسلام، فربما كان لهؤلاء الفلاسفة بدايات معتزلية فى أول حياتهم، ولم تختلط الفلسفة بعلم الكلام إلا فى العصور الإسلامية المتأخرة بسبب المقاومة الشرسة للفلسفة، والفلاسفة، ولكن عندما يتحدث هؤلاء المتبولون بجهلهم، وغبائهم المزمن يتقعرون فيما يجهلون، ويذكرنى هؤلاء بالقروى الجاهل الذى أكره على تعلم لغة أجنبية، فياويل اللغة، وياعذاب المستمعين إذا تكلم بهذه اللغة، وهو لا يدرك أن أمر هؤلاء الأفذاذ انتهى فى الإسلام منذ القرن الثامن الهجرى، وأبيدت كل كتبهم، ولم نعرف لهم كتبا بلغتهم العربية إلا النادر، وظل المسلمون من بعدهم فى انحطاط حضارى قرنا بعد قرن حتى احتلهم النصارى الذين

استفادوا من هؤلاء العلماء، فكيف حدثت الخسارة بسببهم بعد هذه المدة التى تجاوزت ستمائة عام، ولكنها حدثت بسبب أمثال هذا المتبول الذين أسقطوا الحضارة الإسلامية فسقط المسلمون، ولا قيام لهم فى وجود هؤلاء المرتزقة المتنطعين على كل الأبواب حتى أبواب مخابرات النصارى الذين يصمونهم بالكفر..

يقول أنور الجندى فى كتابه «الإسلام فى مواجهة الفلسفات القديمة»:

-«وبذلك أيضا أصبح ابن تيمية رائدا لكل الاتجاهات الحديثة فى نقد منطق أرسطو من أرجانون فرنسيس بيكون إلى المنطقية الوضعية»..

ولعله لا يدرى بحماسه الموروث أن بيكون كان رائد التجربة، والمشاهدة فى الحضارة الغربية، مما أخذه عن علماء الحضارة الإسلامية، وهو ما يشى بالخلط من هؤلاء المتهوسين، كما يشى بما أحدثه فكر ابن تيمية، وغيره فى العقل الإسلامى على مر العصور، وما آل إليه حال هذا العقل من خمول، واضمحلال، فيقول فى فقرة أخرى من الكتاب عن تقييم ابن تيمية لصفوة عقول الأمة التى عجز فكره السقيم، وذهنه القاصر عن إدراك، وفهم إنتاجهم الفكرى:

-«واعتبر الكندى، والفارابى، وابن سينا مجرد امتداد للروح الهلينية فى العالم الإسلامى، وأن علماء المسلمين هم علماء الأصول، والفقهاء»..

ثم أضاف الكاتب إليهم:

-«وعلماء الكيمياء، والطبيعة، والطب».. وهى إضافة أراد بها الدفاع عن جهل، وقصور فهم ابن تيمية، وانغلاق ذهنه على المحفوظات الصماء التى ظل يجترها، ويقتات بها طيلة حياته حتى وصفه منتقدوه بأن:

-«علمه أكبر من عقله»..

وبهذه الإضافة أوقع الكاتب نفسه فى الكذب، ونفى عنه أمانة النقل إذ إن المعروف عن ابن تيمية تكفيره الاشتغال بالكيمياء، والعلوم الطبيعية مثل أغلب الفقهاء، ولم يعترف - كما ذكر - سوى بالعلوم الدينية فقط..

أما ابن خلدون - الفقيه - رغم انتقاده لمن سبقه من الفلاسفة المعتمدين على النظريات اليونانية؛ فقد عاب عليه أترابه الفقهاء أنه ظل رغم ذلك عقلانيا، وثاروا عليه بحدة لتطبيقه مبدأ العصبيات(الولاء للمجموعة) على النبوة حيث أشار بلزوم اتحاد القبائل لتحقيق عقيدة مبنية على الوحى الإلهى، كما أثارتهم ملاحظاته اللاذعة بشأن خشونة، وفظاظة سلوك العرب، وعزا أغلب

المتقدمين فى العلوم فى العصر الذهبى إلى غير العرب فيقول:

-«من الحقائق المدهشة - مع استثناء بعض الحالات القليلة - أن معظم الأساتذة سواء فى الدين، أو العلوم الثقافية كانوا من غير العرب؛ فإذا تصادف أن كان منهم من له أصول عربية فيلاحظ أنه غير عربى اللسان، والنشأة، وحتى معلميه كانوا من غير العرب بالرغم من أن الإسلام دينا عربيا، ورسوله كان عربيا»..

فكان الرد أن وقع الرجل بين التجاهل، والهجوم عليه، ولا يخفى أن الرجل كان من أصول عربية، ترجع به إلى العرب اليمنيين الذين هم أصل العرب الذين نعى عليهم دولهم الهمجية ذات الميل إلى النهب، والتدمير..

بينما يرى أرنولد توينبى Arnold Toynbee صاحب فلسفة التاريخ أن ابن خلدون:

-«استوعب، وبلور فلسفة للتاريخ، فكانت بلا شك هى الأعظم من نوعها على مر العصور»..

وعن العرب أيضا يقول القاضى صاعد بن أحمد الأندلسى فى «طبقات الأمم»:

-«إن العرب فى صدر الإسلام لم تعن بشىء من العلوم إلا بلغتها، ومعرفة أحكام شريعتها؛ حاشا العلوم الطبية فإنها كانت موجودة عند أفراد منهم، غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طرا إليها»..

لم يشتغل العرب بالعلوم العقلية غالبا، بينما برع فيها الفرس، والمغول بسبب تأخر العقل فى الشخصية العربية إلى المرتبة الأخيرة من الملكات النفسية، وهذا يفسر براعة العرب فى الفتوح، وسرعتهم في ذلك، وبروزهم فى علوم الشريعة؛ وهى علوم نقلية لا تحتاج إلى إعمال عقل كبير، أما الأصول، والقواعد فقد قام بها الفرس..

يقول زكى مبارك فى كتابه «الأخلاق عند الغزالى»:

-«كان البحث عن ذات الله وصفاته حمق، وسفه وإنما سبيل المؤمنين أن يتأملوا ما يحيط بهم من جلال الوجود، وأن يبحثوا فى المراد من أن الله سخر لهم ما فى الأرض جميعا، فإنه ليس للعاقل أن يترك الانتفاع بما تلمس يده وترى عينه ليغيب فى مجاهل من الظنون يسميها سفها علم التوحيد».. ويقول:

-«وما أسفت لشىء أسفى لانحسار الأفكار الإسلامية فى معرفة معنى النبوة، والنبى، ومعنى الوحى، ومعنى الشيطان، ومعنى لفظ الملائكة، والشياطين، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان، وكيفية ظهور الملك للأنبياء، وكيفية وصول الوحى إليهم، والمعرفة بملكوت السماوات والأرض،

ومعرفة القلب وكيفية تصادم الملائكة، والشياطين، ومعرفة الفرق بين لمة الملك، ولمة الشيطان، ومعرفة الآخرة، والجنة والنار، وعذاب القبر، والصراط والميزان، والحساب ومعنى لقاء الله، والنظر إلى وجهه ومعنى القرب منه، والنزول فى جواره، ومعنى حصول السعادة بموافقة الملأ الأعلى، ومعنى تفاوت درجات أصل الجنان حتى يرى بعضهم البعض؛ كما يرى الكوكب الدرى فى جوف السماء»..

استغرق العصر الذهبى للبحث العلمى الإسلامى ما بين (183هـ - 800م)، (493هـ - 1100م) حمل فيها العالم الإسلامى مشعل التجديد، والابتكار العلمى الذى استفادت منه أوروبا فى عصر النهضة، وقد قام فى ظل الحكم العباسى من 133هـ - 750م إلى 656هـ - 1258م، خاصة فى بغداد عاصمة العباسيين حتى جاء الغزالى(446 – 504هـ)(1055 – 1111م.) بكتابه «تهافت الفلاسفة» فقام بتهميش الفلسفة التى اشتملت على المنطق، والرياضيات، والفيزياء، ورأى أنها تتعارض مع الدين الإسلامى، وقد استغرق هدم الآراء الفلسفية فى كتاب تهافت الفلاسفة ما يقرب من 95% من الكتاب، أما باقى الكتاب فقد أثبت فيه أن العقل الإنسانى فى الإلهيات لم يأت إلا بظنون تصل إلى حد اليقين، وأن العقل الذى يبنى هو العقل الذى يهدم، كما أوضح د.عبد الحليم محمود فى كتابه «الإسلام والعقل»..

الغزالى:

أدت طبيعة الأشاعرة المعارضة للعلم بوضوح إلى إفراز شخصية ذات عقلية فذة مثل الغزالى ذى التفكير الفلسفى المنظم أرست قواعد التفكير التواكلى المتخاذل، والسلوك المنسحب من الحياة تاركا ما دون المسلمين يتقدمون، ويساهمون فى إنتاج الحضارة، بينما قنن لهم الغزالى أن قطعة القطن المحترقة لم تحترق بسبب النار؛ بل بسبب التدخل الإلهى، إما مباشرة، أو من خلال ملائكته لتنفيذ عملية الحرق، ثم أنهى مناقشاته فى هذا الموضوع قائلا:

-«وهذا يفند ادعاءات هؤلاء الذين يزعمون أن النار مسببة للحريق، وأن الخبز مسبب للشبع، والدواء طريق الصحة..الخ».. وكأنه بهذا الذكاء الطافح، والروح السائمة قد أسلم المسلمين منذ القرن السادس الهجرى إلى يومنا هذا لأعدائهم تسليم الذبيحة المعدة للذبح للجزار الحاذق فى أمور الذبح، وبالتالى أسس لمدرسة المسلمين المنسحبين، ثم المسلمين المنسحقين الذين لا يملكون

من أمور دنياهم شيئا إلا الانتحار، والعويل على المنتحرين..

ويرى ابن رشد أن هذا التفكير نوع من الهراء فلا يعقل استدعاء الملائكة، أو غيرهم كلما احترقت قطعة قطن، فالسبب المادى يؤدى إلى تأثير مادى أيضا فيقول:

-«من باب السفسطة إنكار وجود أسباب فاعلة فى الأشياء الملموسة، إن إنكار السبب يعنى إنكار المعرفة، وإنكار المعرفة يعنى عدم إمكانية معرفة أى شىء فى العالم»..

فمن الممكن تقسيم الثورة على العقلانية الإسلامية إلى ما قبل الغزالى، وما بعده، أو الأصولية القديمة التى لم يكن لها وزن يذكر، أو مؤثر بأدواتهم الضحلة كأذهانهم المنغلقة على الروايات التى لا يبرحونها، فظهر الغزالى الفيلسوف بماله من نفوذ سياسى كبير، وقاد الأصولية القديمة مستخدما نفس أدوات العقلانية الإسلامية إلى النصر الحاسم، والمؤثر للأصولية القديمة إلى يومنا هذا، ورغم اشتغاله بالفلسفة حينا من عمره فقد كان أول من أشهر سيف الكفر، وسلطه على زملائه الفلاسفة الذين خرج للتو من حظيرتهم، منقلبا عليهم، فكان جزاؤه أن انقلب عليه الأصوليون، ولم يحفظوا له جميله، فأشهروا سيف التكفير، والنقد، والتسفيه على قبره لكونه اشتغل بالفلسفة - التى أفادهم بها - يوما ما، ثم انصرافه منها إلى التصوف، فصوره ابن الجوزى فى صورة الكافر الملحد تارة، وبصورة الغبى تارة أخرى بعد أن قلل من مكانته، وحقر من شأنه، وشأن ثقافته؛ رغم انتصاره لأهل السنة الذين كانت الفلسفة، والمنطق تعلو كثيرا عن مداركهم المتواضعة، وتبعه كثير من فقهاء أهل السنة، وقدحوا فى أحاديث كتابه «إحياء علوم الدين»..

يقول زكى مبارك فى كتابه «الأخلاق عند الغزالى»:

-«درس الغزالى الفلسفة ولكنه درسها بنية سيئة درسها ليسبر غورها ثم ينشر مساوئها فى العالمين».. ويقول:

-«وقد درسها بنفسه(على غير العادة فى هذا العصر)، ولم يتتلمذ على أستاذ، فكان ذلك داعية لهذا البغض العميق الذى جعله ينسى الفلاسفة، ولم يذكرهم إلا بسوء»..

ويوضح أثر ذلك على نظرته للفلسفة فى نفس الكتاب فيقول:

-«ذلك بأن الأساتذة ينتصرون لعلومهم، ويؤثرون فى تلاميذهم أثرا غير قليل».. وعن أثر الفلسفة فى الغزالى يقول:

-«فقد كانت سبب حصافته، وذيوع صيته، ثم أطمع فيها العامة، ومكن الجهال من تصغير الحكماء، وليس تكفيره لابن سينا والفارابى بالأمر الهين»..

يقول الغزالى فى «التهافت» عن فلاسفة اليونان، والمسلمين:

-«فوجب تكفيرهم، وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا، والفارابى، وأمثالهما»..

ويقول زكى مبارك عن تكفيره للفارابى:

-«وقد انتفع بمؤلفاته، وإن حكم بكفره مجازفة وبلا دليل»..

وعن تكفيره لابن سينا يقول:

-«ولا ريب أن الغزالى انتفع بمصنفاته، وأن جزاءه جزاء سنمار حيث حكم بكفره مجاراة للعامة، وطاعة للهوى»وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون»..

وعلى الرغم من أن ابن مسكويه قد نقل عن الفلسفة اليونانية نقلا صريحا، بلا مواربة إلا أنه أفلت من تكفير الغزالى له، ربما لأنه أخذ عنه الكثير، والكثير عن كتابه «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق» نقلا يكاد يكون نقلا حرفيا؛ لم يشر إليه الغزالى كالعادة فى خيانة أمانة من نقل عنهم، ولعله كان يحتقر، ويحقد على ما وصل إليه الناس من علم، وهو الذى رمى خصومه بالحقد، والحسد، غير أخطائه النحوية العديدة، وهو الفقيه المفوه الذى لا ينبغى له فهم الدين دون التفقه أولا فى لغته العربية..

أطلق الغزالى أحكامه ضد الفلاسفة، وضد العقل بعد أن قطع كل علاقة له بالدنيا من مال، وولد، وأهل، ووطن، وعلم، وولاية، وجاه بحيث يصير قلبه فى حالة يستوى فيها وجود كل شىء، وعدمه حتى إنه اقتصر على الفرائض، والرواتب، وجلس فارغ القلب، والذهن، فلا يفرق فكره بقراءة القرآن، ولا بتأمل فى تفسير، ولا كتب حديث، ولا غيره إذ سيُلحقه ذلك بسالكى طريق الحواس باستفادة العلوم من التعليم..

اكتشف الغزالى أن الصوفية هم السالكون لطريق الله، وأن طريقتهم هى أصوب الطرق، وهم أعقل العقلاء، وأحكم الحكماء، والواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ذلك لأن جميع حركاتهم، وسكناتهم فى ظاهرهم، وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به، وهو ما وصل إليه ابن تيمية بعده بعشرات السنين من غير طريق التصوف بأن العلم النبوى يجبّ كل العلوم؛ حتى العلوم العقلية، والدنيوية..

لقد انتقص الغزالى أفكار الفلاسفة، وانسحب هذا الانتقاص إلى نقض الفكر، وإعمال العقل كلية، ومن هنا تأتى خطورة الكتاب فى إخماد شعلة العقل الإسلامى..

لقد حكم الغزالى على الفلسفة التى هى نتاج عقل الإنسان مهما كانت القضايا التى كان يناقشها

بالسخف، والهذيان، وصرح فى مواضع كثيرة بأن غرضه من تأليف الكتاب هو هدم الفلسفة(الفكر عموما)، وزعزعة ثقة الناس فيها، وبيان أنها عمل غير ناجح، فإذا كانت الفلسفة هى عمليات فكرية، ومحاولات عقلية للوصول إلى الحق، والصواب بذاته ما دام الحق، والصواب قد أتاه عن طريق الوحى؛ فلماذا إعمال العقل فى حياة من لديه وحى؛ فعليه اللجوء إلى الوحى فى كل كبيرة، وصغيرة قد لا يكون الوحى طرقها بالمرة..

والوحى على شقين، يتعلق أحدهما بالفرد مثل الصلاة، والصيام، والحج، والشهادة، والعقيدة الإيمانية بالغيب(الله، والملائكة، والجن، والرسل، والكتب، واليوم الآخر)، وما يتعلق بالآخر هو الزكاة، والحدود التى هى قانون من لا قانون له، ولا يملك الإنسان إلا الطاعة إزاء ذلك، والانصياع، وإلا اعتبر خارجا من نطاق الله، ورحمته كما فعل إبليس تماما عندما فكر فى أمر السجود، وأعمل عقله فى ذلك، ولكن إعمال العقل مطلوب فى الإتيان بأوامر الوحى المذكورة بلا مناقشة، اللهم إلا سُبل تنفيذ هذه الأوامر التى لا يتم تدبيرها إلا بوجود العقل الذى هو مناط التكليف - كما يقول الفقهاء - أما إنكار الوحى، أو التكاسل عنه بمبررات عقلية فهذا هو العصيان دون الإنكار، أما الإنكار بالعقل، أو بدونه فهو التجديف، والإلحاد..

اقتنع الغزالى بأن اليقين ينحصر فى الحسيات، والضروريات، وقد اقتبس الأمثلة التى تؤدى إلى الشك فى المحسوسات، والمعقولات من السفسطائيين الأولين، ثم بطلت ثقته بالمحسوسات؛ فاتجه نحو العقليات من جنس الأوليات، مثل العشرة أكبر من الثلاثة، والنفى والإثبات لا يجتمعان فى الشىء الواحد، ثم عاد إلى قبول الضروريات العقلية ليس بالدليل، ولكن بنور قذفه الله فى صدره..

يقول د. سليمان دنيا محقق التهافت فى مقدمة الكتاب:

-«وقد لاحظنا أن الغزالى ألف فى علم الكلام وفى نقد الفلسفة وفى نقد مذهب الباطنية وكان يقوم بالتدريس فى مدرستى «نيسابور»، و«بغداد»..ثم يقول:

-«ومما يثير الدهشة أن شاكا فى الحقيقة يصدر تآليف إيجابية حول الحقيقة، ويدرس تدريسا إيجابيا، وأعنى بالتأليف، والتدريس الإيجابيين التقرير، والشرح دون النقد، والتزييف»..كما يقول:

-«وظاهر من ذلك أن الغزالى كان يهدم الفلسفة لأنها تناقض مذهبا كلاميا معينا يريد مناصرته»..

يقول القاضى أبو بكر ابن العربى عن الغزالى:

-«شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة، وأراد أن يتقيأهم فما استطاع»..

ونحن معه فى هذا القول الذى ينسحب تقريبا على كل الفقهاء الذين تظاهروا بإنكار الفلسفة،

والفلاسفة، ثم تناولوا مبادئها فى كتبهم، ومناظراتهم..

وفى «إحياء علوم الدين» يقول الغزالى عن علم الكلام:

-«وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق، ومعرفتها على ما هى عليه، وهيهات فليس الكلام وفاء لهذا المطلب الشريف، ولعل التخبيط، والتضليل فيه أكثر من الكشف، والتعريف»..

وهو هنا يهدم علم الكلام بلا دليل عقلى، ولكنه يعتمد على الخبرة، ومزاجه الخاص، ومجاملته للبعض..

وعلى الرغم من انتقاضه لعلم الكلام لعدم اقتناعه بمذهب أتباعه؛ فقد قال عنه إنه يفيد المؤمن فى إيمانه، ولكنه لا يفيد غير المؤمن، فقد قضى عليهم ذلك أن يأخذوا المقدمات من الطاعنين المشككين ليؤاخذوهم بلوازم مسلماتهم، وهى مقدمات واهية ضعيفة وهذا قليل النفع..

ويقول المحقق أيضا:

-«وقد كان مذهب أهل السنة هو مذهب الدولة التى نشأ بين أحضانها(الدولة السلجوقية السنية)، ومذهب المدارس التى درج فى حجراتها، ومذهب الأساتذة الذين تعهدوه بالتربية، والتعليم إلى فترة بعيدة من عمره»..

ويكشف المحقق هدف الغزالى من تأليف الكتاب فيقول:

-«وأخير فقد ألف الغزالى كتاب التهافت حين كان يطلب الجاه، والشهرة، وبُعد الصيت، فيناصر به المذهب الذى يجلب له كل ذلك، إلا المذهب الحق فى ذاته، وذلك أن أهل السنة فى تلك الفترة كانوا يضيقون ذرعا بالمعتزلة، والفلاسفة، ولكنهم كانوا لا يجدون فى صفوفهم من يجرؤ على مناوأة المعتزلة، والرد عليهم، وليس فيهم من يستطيع أن يتقدم إلى الفلاسفة ليطعنهم بسلاح العلم، والمعرفة حتى يعيش مذهب أهل السنة فى طمأنينة، وأمان، وكان المعتزلة بما لهم من براعة فلسفية، وحجة يتغلبون عليهم فى المناظرات، مما زاد من بغضهم للمعتزلة، والفلاسفة، فكان المجال فسيحا لمن يريد أن يتقدم لينال ألقاب الفخار ما تصبو إليه نفسه؛ بما لم ينله أحد قط؛ فوجد أبو حامد فى هذا مجالا لإشباع غروره فحمل على الفلاسفة حملة عنيفة طيرت اسمه فى الآفاق، ورددت فى الخافقين ذكره»..

ويقول د.عبد الحليم محمود فى كتابه «الإسلام والعقل»:

-«حمل الإمام الغزالى على الأساس الذى تقوم عليه الفلسفة، وهو العقل حملة عنيفة، وهجم عليه هجوما قويا، ولم يفتر قط عن مهاجمته منذ ألف كتابه القيم «تهافت الفلاسفة» إلى أن انتهت

به الحياة»..

ونضيف أنها أنهت أيضا حياة المسلمين العقلية دون رجعة إلى يومنا هذا، ولا أمل فى الرجوع ما دامت هذه الفئة هى المسيطرة على عقول المسلمين..

وهو فى كتابه يقول عن التشكيك الفلسفى - على حد تعبيره - الذى اصطنعه الغزالى، وكانت نتيجته:

-«إذ قضى ذلك على المذهب العقلى الذى كان موضع الزهو؛ على الرغم من ضحالته، وهو المذهب الذى سار فى نفس الاتجاه إليه المذهب العقلى فى ألمانيا قبل ظهور كانط»..

ولكن الشيخ جهل، أو تجاهل أن كانط انتقد استخدام العقل فى الإلهيات، وما وراء الطبيعة، وأقره فى المسائل الحسية، والتجريبية، وهو ما لا نجده لدى الغزالى الذى ألغاه من الحياة بالكلية؛ ما دام الدين موجودا بدليل ما صارت إليه ألمانيا من تقدم، وما صار إليه المسلمون من تخلف، وانهزام، وتسول، ولا يدرى أنه ألغى الدين بإلغاء العقل حيث لا تستقيم التكاليف الدينية بغير العقل، فهى تسقط بإلغائه كما يقول الفقهاء..

عاش الغزالى زمن انحسار الخلافة العباسية، فلم يكن من أثر للخليفة فى بغداد إلا الخطبة على المنابر؛ فعاصر المقتدى(487هـ - 1094م)، والمستظهر(512هـ - 1118م)، وكان سلاطين السلاجقة يسيطرون على مفاصل الدولة من وزراء، وساسة، وجيش، ووصلت سلطتهم إلى حد عزل الخليفة، وعاصر منهم الغزالى عضد الدولة بن أرسلان(465هـ - 1072م)، وجلال الدين ملكشاة(485هـ - 1092م)، وناصر الدين محمود(487هـ - 1094م)، وركن الدين أبى المظفر بركياروق(498هـ - 1104م)، وركن الدين ملكشاة الثانى(498هـ - 1104م)، ومحمد بن ملكشاة(511هـ - 1117م)، وحتى هؤلاء كان بعضهم ألعوبة فى أيدى وزرائه كالخليفة العباسى تماما، وكان نظام المُلك الذى اغتاله أحد الباطنية سنة 485هـ - 1092م أشهر هؤلاء الوزراء، وكان يأمل فى دوام السلطة له ولأولاده من بعده، ويعتبر هذا الاغتيال بداية سطوة الباطنية الإسماعيلية التى اشتهر منها الحسن بن الصباح(430 – 518هـ)(1037 - 1124م) الذى لم يعترف بالخليفة المستعلى الفاطمى بمصر، بينما أعلن الولاء لأخيه نزار..

وعاصر الغزالى الحروب الصليبية(490هـ - 1096م)، ومنها الغزو الصليبى للشام، وإقامة الإمارات اللاتينية بها، والدولة السلجوقية السنية فى خرسان، وبغداد، كما عاصر الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله فى مصر(490هـ - 1096م)، والمتوفى(524هـ - 1130م)، وعاصر يوسف بن

تاشفين بالمغرب(500هـ - 1106م)، وعاصر ابنه من بعده..

وتأثر الجو الاجتماعى بهذا الانحلال السياسى حتى طال الصفوة منهم؛ فثارت الفتن بتكفير الأشاعرة للشيعة، والمعتزلة، والفلاسفة، كما كفر الحنابلة الشافعية، والمالكية، والحنفية، وأبغضوا الأشاعرة؛ فقتل بعضهم البعض بتشجيع الحكام أحيانا، وبإثارة العامة أحيانا أخرى، وأصبح القتل فنا تنافسوا فيه بالطرق المختلفة حبسا، أو رجما، أو طردا، أو صلبا، أو هجرا، وقد تتحدد إقامة البعض؛ فلا يجرؤ على الخروج من بيته زمنا وصل إلى الخمسين عاما، وكانت بغداد من أكبر مسارح هذا الهرج، والانحدار الحضارى..

تعصب الوزير نظام المُلك ذو السطوة الكبرى للمذهب الشافعى(مذهب الغزالى) فجند موارد الخلافة لإنشاء مدارس للفقه الشافعى فى بغداد، وبلخ، ونيسابور، وهراة، وأصبهان، والبصرة، ومرو، وطبرستان، والموصل، فحملت هذه المدارس اسمه، وملأها بنفائس الكتب، واشترط فى بعضها دخول أصحاب المذهب الشافعى فقط فى الأصول، والفروع، ولم ينافسه فى ذلك إلا الوزير شرف المُلك عندما بنى مدرسة للفقه الحنفى فى ضريح أبى حنيفة ببغداد..

عين الوزير نظام الملك الغزالى فى أشهر مدرسة فى العالم الإسلامى، وهى المدرسة النظامية التى بدأ بناءها سنة 457هـ - 1064م، وتم تعميرها سنة 459هـ - 1066م، وجددت سنة 504هـ - 1110م لنشر العلوم، والعقائد السنية فى منافسة للأزهر الذى اكتمل بناؤه سنة 361هـ - 971م حيث كان موئلا لنشر العلوم، والعقائد الشيعية..

إن ما لم يدركه رجال الدين الإسلامى، والفقهاء هو أن الفلسفة هى حالة فكرية تأملية تفسر الواقع، وواقع المسلمين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم هو الفرقة، والانقسام، ثم التطاحن، والاقتتال حتى يومنا هذا، ومن ثم بعد الاستقرار السياسى الذى أعقب الفتوحات مباشرة، وخلود المسلمين إلى الدعة، والراحة، والاستفادة من غنائم الفتوحات، والسيادة على الأمم غلب عليهم الفكر، والتفلسف فكانت الترجمة هى التعبير عن مطالب الأمة الفكرية ليطالعوا ثقافات من كان قبلهم من غير أهل الكتاب؛ فكان من الطبيعى ذهاب الفكر إلى مذاهب شتى، وهو ما توهمه الفقهاء، ورجال الدين انقساما فى الأمة، ولكنه الانفتاح الفكرى الذى افتقروا – هم - إليه، ووقعوا فيه فجرّوا عوام المسلمين وراءهم انقساما، وفرقة مذهبية فى الدين، وليس فى الفكر كما توهموا، أو جهلوا..

ولم يكن التوحيد الذى مثلته المدرسة السقراطية، ومن بعده المدرسة الأفلاطونية، ثم الأرسطية

فى جزءياته، وتفاصيله توحيدا خالصا كما جاء به الأنبياء - وهو تخصصهم، وليس تخصص الفلاسفة - فلم يخل من عوالق، وشوائب الوثنية أيا كانت، فقد تحدث أفلاطون فى إلهياته تارة عن الإله الواحد، وأخرى عن الآلهة، بيد أن الفلسفة اليونانية قد جاءت بالإلحاد، والإنكار لكل ما بعد الطبيعة من إله، وبعث، ورسالة على يد آبيقور، ومدرسته، وهو ما لم يأخذ به فلاسفة المسلمين أبدا..

أما مسائل ما إذا كان العالم قديما، أو مخلوقا، وما إذا كان الله يدرك الخصوصيات، أو الكليات، وما إذا كان هناك بعث جسدي فقد كانت هى مباحث الفلسفة..

وعن قدم العالم الذى كفر فيه الغزالى الفارابى، وابن سينا يصفع ابن رشد هؤلاء الذين لا تطيق عقولهم البراهين الفلسفية، فضلا عن الآيات الدينية فينوه إلى أنهم متأولون فى فهمهم للدين الذى لم يقرر أن الله كان موجودا فى العدم المحض، فكيف انعقد الإجماع على الجهل؟.. والله تعالى يقول:

-«وكان عرشه على الماء» هود(7)..

فلا معنى لوجود الله فى العدم، وإنما ذكر سبحانه العرش، والماء فى وجوده فندرك من ذلك قدم العرش، والماء اللذين لا يصح أن يكونا أقدم من الله بحال من الأحوال، لكنهما من لوازم هذا الوجود فلا معنى لمُلك بدون عرش، وهو الذى قال أيضا:

-«أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما» الأنبياء(30)..

بمعنى أن القول بقدم العالم لا ينفى أبدا خلق الله لهذا العالم، ولا يعقل، ولا يصح أن يكون وجود العالم قبل وجود الله بداهة، وهو ما لم يتحدث فيه تعالى سوى بوجود هذه المخلوقات الأساسية التى أخبر عنها، وليس هناك علاقة بينه وبينها سوى علاقة الخالق بالمخلوق، ولم يصرح بأكثر من ذلك من العرش، والماء، والسموات والأرض، ومن هذه الأصول تحدث عن تسلسل المخلوقات، ولا شىء غير هذا إلا أوهام امتلأ بها خيال الفقهاء، وفى هذا يقول زكى مبارك فى كتابه «الأخلاق عند الغزالى»:

-«وبمناسبة كلام ابن رشد نقرر أن علماء التوحيد أسرفوا فى تكفير الفلاسفة، بل أسرفوا فى تكفير بعضهم البعض بأسباب ضعيفة لا يعرفها الإسلام، وما زالوا يسرفون»..

ويوضح ابن رشد مسألة قدم العالم بفرض أنه إذا قال الفلاسفة إن العالم قديم؛ بالمعنى الذى لا ينطبق إلا على الله فقط وجب تكفيرهم، لأنهم أنكروا أصلا من الدين، ولكنهم لم يعتبروا العالم قديما بهذا المعنى، فلا داعى إذا لتكفيرهم إذا اجتهدوا فى تأويل أصل من أصول الدين دون إنكاره،

وهذا حقهم الشرعى حيث قال الفلاسفة إن العَالَم تابع لله منذ الأزل، لأن الزمان قديم - لا بمعنى أنه علة نفسه، وقائم بذاته - إذ إن تعريف القديم بهذا المعنى لا ينطبق إلا على الله..

وبينما رأى الغزالى فى العالم الإسلامى أن الخطر سيحيق بكل من يخوض فى البحث العقلى حتى فى مجال معرفة الله التى لا تتأتى إلا بالوحى، كان بيتر أبيلار(توفى 1144م) فى أوروبا، والذى كان معاصرا للغزالى يرى أن كل معرفة بالعقل خير، بما فى ذلك معرفة الشر، ويجب ألا تكون هناك حدود تمنع من اكتساب المعرفة بحرية، حيث إن هذه المعرفة هى فضل من الله..

الغزالى مترددا:

على الرغم من رأى الغزالى المعروف عن الفلاسفة فى حديثه عن خبطهم الطويل، ونزاعهم الكثير، وطرقهم المتباعدة، وحكمهم بالظن، والتخمين من غير تحقيق، ويقين..الخ نجده يعتبر «منطق أرسطو» - أصل الفلسفة كما عرّفه الرافضون، والمؤيدون - شرطا من شروط الاجتهاد فى الشريعة، وفرض كفاية على المسلمين(الفقهاء، ورجال الدين) حتى يتخلصوا من الخطأ فى الاستدلال فى شتى علومهم حتى أطلق عليه «معيار العلم» فى كتابه عن المنطق، فالمنطق لديه عبارة عن علم معيارى، يوزن به الحق، والصواب، ويقاس به التفكير، وتعصم قواعده العقل من الوقوع فى الخطأ، كما أن العَروض ميزان الشعر، والنحو ميزان الإعراب، وضبط الكلام، فيقول فى كتابه «القسطاس المستقيم»:

-«لا أدعى أنى أزن بها(قوانين العقل) المعارف الدينية فقط، بل أزن بها العلوم الحسابية، والهندسية، والطبيعية، والفقهية، والكلامية، وكل علم حقيقى غير وصفى(يعتمد على المشاهدة مثل علوم النبات، والحيوان، والفلك) فإنى أميز حقه عن باطله بهذه الموازين، وكيف لا وهو القسطاس المستقيم»..

ومبدأ الغزالى فى المنطق:

-«من لا معرفة له بالمنطق فلا يوثق بعلمه»..

وعرف أرسطو منطقه:

-«آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ فى الفكر»..

وهو لا ينتقد المتكلمين الذين لا يأخذون بالمنطق الأرسطى فقط بل يتعداهم إلى زملائه الفقهاء

فيقول فى كتابه «معيار العلم»:

-«إن أكثر أقيسة الجدليين من المتكلمين، والفقهاء فى مجادلاتهم، وتصانيفهم مؤلفة من مقدمات مشهورة فيما بينهم، سلموها(سلموا بها) لمجرد الشهرة، وذهلوا عن سببها، ولذا نرى أقيستهم تنتج نتائج متناقضة، فيتحيرون فيها، وتتخبط عقولهم فى تنقيحها»..

الشك الغزالى والشك الديكارتى:

شك الغزالى الفيلسوف الفارسى المسلم أهدر كل ما هو عقلانى، وانحاز لدين الروايات مهما احتوت من تناقض، وخرافات، أما ديكارت فقد انتهى إلى تأسيس فلسفة الوعى بالذات التى أخرجت أوروبا من ظلمات الفكر الدينى الوضعى..

خرج الغزالى من الشك بطريقة لا تصل بأحد إلى يقين؛ فقد خرج بنور الله، وهو الهداية التى لا يؤتيها الله إلا لمن يشاء من عباده، فبدا الغزالى وقد هزمه الشك وأصابه فى مقتل، ولم يبين لنا مصير الإنسان إذا ما بقى على شكه، ولم يدركه نور الله لهدايته إلى اليقين، وهو قد قصر هذا الشك على العلماء دون العامة فحظره عليهم، كما كان يحرم الإجابة على بعض الأسئلة، ولم يمدنا أيضا بمعيار علمى Epistimology فيما يتعلق بإرادة الله، وإيجاد المعدوم، ولا أدعى ذلك بأدلة برهانية..

بينما رأى ديكارت بناء صرح جديد للعلم؛ لعدم كفاية العلوم المعروفة فى عصره، وذلك بتحكيم العقل، ونبذ الكتب التى تمتلئ بالمتناقضات، فالبناء الذى يقوم به مهندس واحد أفضل من ذلك الذى يقوم به عدة مهندسين، ولوضع فلسفة جديدة يجب وضع أسلوب جديد، ووجد أن الأسلوب الرياضى هو أحسن الأساليب، لأنه هو العاصم للفكر من الخطأ، والضلال، ووجد أن البصيرة هى الجارحة التى تدرك الحقيقة مباشرة، وهى العقل السليم اليقظ، والإدراك السهل الواضح الذى لا يتطرق إليه الشك؛ فضوء العقل يأتى من داخل الإنسان، وهو الذى ميزه الله بهذه النعمة دون سائر المخلوقات..

وديكارت Descartes (1596 – 1650م) أبو الفلسفة الحديثة الذى أدخل أوروبا عصرا جديدا من الفلسفة، خرجت بها من إطار الفلسفة اليونانية الممتدة عبر العصور، ولد فى لاهاى بعد الغزالى بحوالى خمسة قرون، وتلقى علومه الأولى فى إحدى المدارس اليسوعية، ودرس اللغات القديمة، والأساطير، والتاريخ، والبلاغة، والشعر، والرياضيات، والأخلاق، واللاهوت، رحل إلى باريس فى

شبابه والتحق بالجندية، ثم طاف بألمانيا والسويد والدنمارك، واستقر فى هولندا التى كانت ملائمة لنشر آرائه بحرية لم تسمح بها بلده فرنسا فى ذلك الوقت، فأكب على وضع مذهبه..

فرق ديكارت بين نوعين من الشك وهما الشك المذهبى، والشك المنهجى، فبينما يتوقف الشك المذهبى بالإنسان عند نقطة معينة لا رجوع منها، يرتبط الشك المنهجى بالبناء الحضارى؛ فهو ليس شكا لمجرد الشك كالشك المذهبى، ولكنه شك موصل إلى اليقين الذى هو أساس الحضارة، والشك المذهبى هو النار التى استخدمها الغزالى فاحترق بها، وأحرق بها المسلمين لأنه لم يدرك أنه سقط طواعية فى الشك الذى لا قيام منه، ولا بعث، ولم يدرك أن هناك شكا منهجيا يوصله إلى اليقين لا محالة، وهو ما لم يذهب إليه ديكارت أبدا، ولكنه انحاز إلى الشك المنهجى ليصل إلى هدفه، ومعه كل الأوروبيين الذين خرجوا من ظلمات العصور الوسطى، وخلفوا المسلمين وراءهم يرتعون فى التخلف، والجمود، ثم احتلوهم، وأهدروا ثرواتهم ولا يزالون..

وجد ديكارت اليقين فى الاستنباط الرياضى، والحدس العقلى الذى أساسه الفلسفة التى نقضها الغزالى فانهار معها الاستنباط الرياضى، والحدس العقلى ومن ثم انهار المسلمون، وانهارت حضارتهم فوق رؤوسهم، أما بيكون فقد توصل إلى اليقين عن طريق الاستقراء التجريبى(الحواس) التى رفضها الغزالى كلية من قبل..

يقول ديكارت:

-«الفلسفة ماهى إلا شجرة جذورها الميتافيزيقا(ما بعد الطبيعة)، وجذعها العلم الطبيعى، وأعضاؤها بقية العلوم، وهذه ترجع إلى ثلاثة علوم أخرى هى الطب، والميكانيكا، والأخلاق العليا الكاملة»..

وبينما استخدم ديكارت العقل فى الوصول من البديهيات الرياضية التى عرفها الغزالى بأن العشرة أكبر من الثلاثة، والكل أكبر من الجزء، وعدد أضلاع المثلث ثلاثة ليستنبط نتائج لزمت عن هذه المقدمات البديهية؛ نرى الغزالى قد أهدر هذه المقدمات بكل سهولة، واستهان بها، وتوقف عندها لاستهانته بالعقل، فتوقف المسلمون بعد أن توقفت عقولهم..

والشك نظرية صوفية قديمة تحدث عنها الإمام الجنيد، والحلاج، وإبراهيم بن أدهم، كما أن للحلاج آراءه السياسية التى أدت به إلى القتل، والحرق..

ابن رشد:

حل ابن رشد الإشكالية القائمة بين منهجى البحث الدينى، والفلسفى بقوله:

-«إن الشريعة هى الأخت الرضيعة للحكمة، والنظر الصحيح فى أى منهما يوصل إلى النتيجة ذاتها فى الأخرى، لأنهما مظهران مختلفان لحقيقة واحدة، وإذا ما بدا فى الظاهر تعارض بين منطوق النص، أو الشريعة، والحكمة، فإنه يجب علينا اللجوء إلى التأويل، والتأويل معناه إخراج اللفظ من دلالته الظاهرة إلى دلالته الباطنة المجازية، وقد نصت الشريعة على ذلك صراحة بقوله تعالى:

-«وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا» آل عمران(7)..

والجدير بالذكر هو أن بعض المعاصرين من المناطقة الفقهاء يرى أن القرآن يحث على استخدام الأساليب البرهانية، والخطابية، والجدلية فى الدعوة الإسلامية لقوله تعالى:

-«ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن» النحل(125)..

فذكر الحكمة وهى البرهان، والموعظة الحسنة من صناعة الخطابة، والجدل معروف، وقد ذكر العقل، والتعقل، والفهم فى القرآن 50 مرة على مدى 300 آية، يعنى 5% منه تقريبا..

بعد أن كان ابن رشد قاضيا لأشبيلية، ثم قرطبة أمسى ضحية لمؤامرات الفقهاء من أترابه الذين امتلأوا حقدا عليه، وعلى العلماء، والفلاسفة فى دولة الموحدين لاسترجاع ماكان لهم من مكانة، ونفوذ مقرون بالجاه، والثراء فى دولة المرابطين، فبعد وفاة الخليفة الموحدى أبى يعقوب سنة 579هـ - 1184م، وتولى بعده ابنه أبو يوسف الملقب بالمنصور الذى كان ابن رشد ذا حظوة لديه؛ فأوغروا صدره عليه، أصدر أوامره باعتقاله، ثم نفاه من قرطبة إلى قرية يسكنها اليهود؛ فرحل مع بعض الدارسين فى صمت، ثم صدرت الأوامر بإحراق كتبه، ورسائله؛ وعقاب من ينظر فى كتب الفلسفة، فرحل إلى مراكش حيث مات هناك كمدا، وقهرا..

ولم يكن لابن رشد - للأسف - تلاميذ من المسلمين يكملون الدفاع عن الفلسفة من بعده والذى بدأه فى كتابه «تهافت التهافت»، ولكن حمل رسالته تلاميذه فى الغرب حتى يومنا هذا، بينما حظى الغزالى بالانتشار فيما بدأه فى كتابه «تهافت الفلاسفة» عن طريق تلاميذه المسلمين فى الشرق الذين اكتفوا بالفقه، والتصوف، فانتصرت الفلسفة الإشراقية بعد ابن سينا، والسهروردى، وابن عربى..

ابن تيمية والسيوطى:

اعتمد ابن تيمية(661 – 728هـ)(1263 – 1328م) فى نقد المنطق الأرسطى على عدة مدارس يونانية، نقل حججهم النقدية لهذا المنطق عن أصحابها، وهى:

1 - السوفسطائية..

2 - الشكاك اليونانيين..

3 - الرواقيون..

4 - المتكلمون..

تحول هذا النقد فى فكر المسلمين على يد ابن تيمية، وأتباعه إلى الإطاحة بهذا المنطق، والارتداد عليه، والتمسك بعيوبه، وثغراته، وليس الانطلاق منه، والبناء عليه كما فعل روجر بيكون(611 - 693هـ)(1214 – 1294م) قبله فى أوروبا..

وروجر بيكون الراهب الفرانسيسكانى الإنجليزى، أشهر علماء القرون الوسطى، تعلم اللغة العربية، ودرس علوم المسلمين فى اكسفورد، وصرح علنا بأهمية تلك العلوم، وقيمتها فى تكوين المعرفة، وتجاوز المنطق الأرسطى الموغل فى الفرضيات البديهية العقلية، المحكوم بثنائية القيم المطلقة، الغارق فى الذهنيات النظرية، عابرا منه إلى اكتشاف المنطق التجريبى العلمى، والنسبى الذى يربط العلم، ومناهج التفكير بعالم الطبيعة، بعد أن كان المنطق الأرسطى مرتبطا بعالم الذهن، والنظر العقلى البحت..

ثم جاء فرنسيس بيكون Francis Bacon (1561 – 1626م) الفيلسوف الإنجليزى فذهب إلى مانادى به سميّه روجر بيكون وهو أن التجربة هى البرهان الأوحد فى العلوم الطبيعية، وتظاهر برفض منطق أرسطو النظرى، وإن لم يستغن عنه كمنطق عقلى..

اعتمد ابن تيمية على القرآن فى إنشاء منطق إسلامى، على أساس ما به من صور الاستدلال، والميزان، ولكن ابن تيمية لم يدرك أن الفلسفة اليونانية قامت على العلم اليونانى المادى، والعقلى، وإن لم يكن تجريبيا فى وقتها، فقد أصبح تجريبيا استقرائيا عند انتقاله للعلماء المسلمين من أمثال جابر بن حيان، والرازى، وابن سينا، وابن الهيثم، وغيرهم، وهو وغيره عندما انتقدوا الفلسفة اليونانية بفلسفتهم الدينية قد هدموا العلم، والمنهج التجريبي الاستقرائى الذى أسس له الرسول الكريم فى تجربة تأبير النخل المشهورة، فوضعوا الدين ذا النصوص الثابتة بدلا من العلم المتغير على

obeikandi.com

حسب نتائج التجربة، بما يندرج تحت بند الهوس الدينى، والخوف عليه، وكأن الله تعالى أوكل لهم أمر الدين رغم تأكيده القاطع بأن أمر الدين أصبح بيده بعد أن أضاعه الإنسان مرات، ومرات قبل ذلك فى حضاراته، ودوله، وسلطانه، فتحول الدين إلى كهانة ألغاها الإسلام كلية، وما زال هؤلاء يصرون عليها بادعاءاتهم المغرضة لمصالحهم الشخصية، وكأنهم بداية من ابن تيمية قد وضعوا للمسلمين الذين انحسرت حضارتهم، وتأثيرهم قواعد التخلف، وعملوا جاهدين على تأصيلها فى العقلية الإسلامية بجعلهم الدين، والقرآن علما مثل العلم التجريبى، وذلك بإقامة فلسفة أضرت بالدين، والعلم التجريبى معا لدى المسلمين..

ومن هنا بدا فكر ابن تيمية أقرب إلى قيم الهدم، والتخلف، وأقرب إلى البيئات البدوية المنغلقة، والريفية البدائية من البيئات الحضرية، والمدنية، وافتقد مفهوم التمدن، والتقدم، والتعمير، على الرغم من اعتماده طوال حياته فى معاشه على راتب الدولة، والنظام المستقر، والسلطان القائم..

ومن بعده انقسم المسلمون إلى الاتجاه النقدى لمنطق أرسطو الذى تبعه فيه تلميذه ابن القيم(751هـ - 1350م)، والصنعانى(840هـ - 1436م)، والسيوطى(911هـ - 1505م)، أما القسم الثانى منهم فقد اتخذ اتجاه ابن الصلاح فى تحريم المنطق الأرسطى، ورفضه نهائيا، مثل عبد الوهاب السبكى(771هـ - 1369م)..

وجدير بالذكر معاصرة ابن تيمية للغزو المغولى(656هـ - 1258م)، فعانى من آثاره عليه، وعلى المسلمين، كما عاصر دولة المماليك(648 – 923هـ)(1250 – 1517م)،

يقول السيوطى فى كتابه «حسن المحاضرة»:

-«وأما علم الحساب فهو أعسر شىء علىَّ، وأبعده عن ذهنى، وإذا نظرت فى مسألة تتعلق به فكأنما أحاول جبلا أحمله».. ويقول أيضا فى نفس الكتاب:

-«رزقت التبحر فى سبعة علوم؛ التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والمعانى، البيان، والبديع على طريقة العرب البلغاء، لا على طريقة العجم، وأهل الفلسفة»..

اضطر السيوطى اضطرارا إلى تأليف كتابه «صون المنطق» عندما ادعى الاجتهاد سنة 888هـ - 1483م، وهاجمه الفقهاء، ورجال الدين لأنه لا يتقن المنطق - وهو شرط من شروط الاجتهاد كما ادعى الغزالى من قبل - خاصة وأن السيوطى اعترف فى كتابه «حسن المحاضرة» الذى ترجم فيه لنفسه، أنه لم يحب المنطق، ولم يتمكن من إجادته كابن الصلاح من قبله، فيقول:

-«وقد كنت فى مبادئ الطلب، قرأت شيئا فى علم المنطق، ثم ألقى الله كراهته فى قلبى، وسمعت

أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه، فتركته لذلك»..

ثم يعود فى كتابه «صون الكلام والمنطق» فينقض كلامه لتبرير تأليفه كتابا عن المنطق:

-«وتحدثت بما أنعم الله به علىَّ من الوصول إلى رتبة الاجتهاد، ذكر ذاكر أن شروط الاجتهاد معرفة فن المنطق، يعنى وقد فُقِد هذا الشرط عندى بزعمه، وما شعر المسكين أنى أحسنه أكثر مما يدعيه، ويناضل عليه، وأعرف أصول قواعده، ومابُنيت عليه»..

عاش السيوطى فى عصر المماليك الأوسط؛ زمن انحسار العلماء المفكرين، والمجددين، إذ كان علماء عصره لا هم لهم سوى جمع، وتلخيص ما كتبه القدماء، وكان السيوطى أحدهم..

obeikandl.com